الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

اتجاه جديد فى الحياة المصرية — أخيلة ربيعية تساور الكتاب المصريين — تاجوج المريضة فى السودان — فرصة لن تضيع — نقد الشعر على أساس وحدة البيت — قصة أدبية — شاعر يتحدى جميع الشعراء

اتجاه جديد فى الحياة المصرية

التاريخ الأدبي والعلمي لمصر يشهد بأن المصريين كانوا يعتزُّون بالريف كل الاعتزاز ، فينتسب الأديب واللغوي والفقيه إلى بلده الذى ولد فيه بأسلوب يفصح عن ارتياحه لذلك الانتساب . وفى رجالنا العظماء من عُرفوا بالنسب إلى بلادهم ، بحيث صارت تلك النسبة هى العَلَم الأصيل ، وبحيث صار الاهتداء إلى أسمائهم الأولى يُحوج الباحث إلى مراجعة كتب التراجم والتاريخ

الأشموني النحوى ، والشنشورى الفرَضي ، والباجورى الفقيه ، والدميرى المحيط[1] : أمثال هؤلاء لا يُعرَفون بغير هذه الأنساب ، وهى غاية فى التعريف ، وعلى مثلها يقاس فى الأعلام المنسوبة إلى قُرى الريف بمصر الشمالية ومصر الجنوبية

ومن غريب ما لاحظتُ أن النسبة إلى العواصم كانت قليلة ، فلا يقال القاهرى أو الفسطاطي إلا فى أندر الأحايين !

ولعل السُّيوطى حين انتسب إلى سيوط لاحظ أن بلده ليست إلا دَسكرة من دساكر الريف ، وأن الانتساب إليها يميزه عن القاهريين[2]

وأكثر من تولوا رياسة الأزهر منسوبون إلى بلادهم ، من أمثال : البشرى والمراغى والظواهرى ؛ وهذه الظاهرة أوضح من أن تحتاج إلى استقراء[1]

ولكن ، ما الذى أفدناه من الانتساب إلى قُرى الريف ؟

الفائدة تفوق الوصف ، فقد أضفتْ على القُرى المصرية لمحات روحية ، وزادت فى قِيمها المعنوية ، وربطت أهلها برباطٍ وثيق ، وأطعمتهم فى معانى المجد والخلود

ومن الذى يمرّ على أشمون أو شنشور أو الباجور أو إسنا أو سَلَوِى أو أسيوط أو منفلوط ، ولا يتذكر أن هذه البلاد كانت منابع لعبقريات حفظ فضلها التاريخ ؟

ولكن الحال تبدلت فيما بعد ، وصار الانتساب إلى الريف لا يقع من الأنفس موقع القبول . وزاد الخطر بتوهم أهل الريف أنْ لا قيمة للحياة فى غير الحواضر ، وأن الريف لا يصلح مُقاماً لغير العاجزين عن الانتفاع بثمرات التمدن الحديث ، وصار من حق الفلاح أن يودِّع المسافر إلى القاهرة بهذا النشيد :

« ليلتك سعيدة وسعيدة يا رايح مصر »

ثم لطف الله بالمصريين فوصلوا قُراهم بعد القطيعة ، وآنسوها بعد الإيحاش ، وأصبح من المألوف أن تجد فتًى من حملة الأجازات العالية يحدثك عن متاعبه فى البحث عن أدوات الحرث والحصاد ، وصار من السهل أن تجد فى الوزراء السابقين من يستغل نشاطه فى استئجار الأراضى الواسعة بالريف[2]

---

(١) المحيط هى الكلمة التى أختارها ترجمة لكلمة Encyclopédiste والدميرى محيط بفضل كتابه « حياة الحيوان » ، فهو دائرة معارف . والدميرى منسوب إلى « دميرة » إحدى قرى الغربية ، وفيها ولد أخونا الأستاذ أحمد حسن الزيات

(٢) سيوط : اسمها اليوم أسيوط ، واسمها الفرعوني سووط ، ومعناه الحارس ، لأنها كانت تصد غارات الشمال على الجنوب

(١) الظواهري : نسبة قديمة إلى « الظواهر » ، وهى ضواحى مكة ، وبها كان يقيم أجداد الشيخ الظواهرى فى سالف الزمان ، وإليهم ينسب « كفر الظواهرية » بمركز ههيا بمديرية الشرقية

(٢) الوزير الذى أعنيه هو معالى الأستاذ حلمى عيسى باشا ، وهو رجل لا يكتفي بالاشراف على أملاكه الكثيرة ، وإنما يبحث عن الباشوات الكسالى ، أو الكسلانين ، ليستأجر أملاكهم لحسابه الخاص ، فهو وزير دائم لادارة تلك الأملاك ، وهو يبذل فيها من النشاط مثل الذى كان يبذل بوزارات المعارف والأوقاف والمواصلات ... فليقرأ هذا الكلام خريجو كلية الزراعة من طلاب الوظائف الكتابية !

وأظهر أمراء مصر عنايةً بمزارعه هو صاحب السمو الأمير عمر طوسون ، فقد سمعت أنه يعرف أملاكه قطعةً قطعة ، وأنه يراقب الأسعار مراقبة الخبراء . وهذا هو السر فى أن الله حفظ عليه نعمة اليسار المريض[1]

أخيلة ريفية

والذى يهمنى من هذا كله هو انتفاع الأدب الحديث بعودة المصريين إلى الريف ، فقد لاحظت أن فى كتابنا من تساورهم الأخيلة الريفية ، وهى أخيلة على جانب من الجمال ، وستغذّى الأدب الحديث بألوان وألوان

ولتوضيح هذه الفكرة أذكر أنى كنت ألوم الأستاذ الزيات على طول مُقامه بالريف ، ثم تمنيت أن يقيم بالريف إلى آخر الزمان حين رأيته يقول :

« وفى الريف خطباء وشعراء كعصافير الحصاد ، تزقزق للحبة ، ولا تزقزق للزهرة »

وهذا كلام عجيب غريب ، أعنى أنه من النفاسة بمكان

وفى صباح اليوم قرأت كلمة للدكتور سعيد عبده فى « مجلة الساعة ١٢ » كلمة من جنس كلام الأستاذ الزيات فى الاستفادة من الأخيلة الريفية ، فالتفت ذهنى إلى هذا المعنى من جديد ، فما كلمة ذلك الدكتور الفلاح ؟

تكلم عن المعارضين فى مجلس النواب فقال « إن عددهم أقلُّ من عدد الدحريج فى القمح النظيف »

أى عبارة هذه ؟ وما الذى فاتها من خصائص التشبيه الدقيق ؟

ولو نظرنا فى تذييل هذه العبارة لوجدناها أعجب وأغرب ، لأن التذييل كان لمحة من النقد اللاذع لما صرنا إليه من الوجهة المعاشية ، ويكفى أن أقول إنه قيّد القمح النظيف بالقمح الذى كان قبل سنة ١٩٣٩

تاجوج المريضة فى السودان

فى قصيدة الشاعر محمد سعيد العباسى جاءت هذه الأبيات :

فيا ابن المبارك عِشْ سالماً ... وبُورِكَ فى زَندك الوارية
تغنّيتَ حيناً بليلى العراق ... فأحللتها الرتبة السامية
فمُد لنا فضل ذاك العِنان ... عنانَ يراعتك الطاغية
وألمِمْ بتاجُوجَ واحفِلْ بها ... فتاجوجُ جوهرةُ البادية
وعلِّقْ على جِيدها تاريخها ... دوارىٌّ أبحرك الطامية

فمن تاجُوج ؟ من تاجُوج وما تحدّث عنها أحدٌ من الذين قصّوا أخبار العشاق ؟

هى فتاةٌ جميلة عفيفة ، أحبّها فتًى جميلٌ عفيف ، وكانت لها أخبار تُشبه ما كان بين ليلى وقيس ، ولعشاقها أشعارٌ لا تقلّ روعة عن أشعار المجنون ، عليهم جميعاً رحمات الذى خلق ثمرات النخيل والأعناب !

سمعت أولَ مرة بأخبار تاجُوج وأنا فى بغداد ، من خطاب فتًى سودانىٍّ عزّ عليه أن تشغلنى ليلى عن تاجوج ، فرمى سهم العتاب من الخرطوم إلى الزوراء

سهمٌ أصابَ ورامِيه بذى سَلَمٍ
من بالعراق لقد أبعدتِ مرماكِ

ثم اتفق بعد رجوعى إلى مصر أن أبحث عن أخبار تاجوج فرأيتها مسطورة فى رحلة سموّ الأمير يوسف كمال إلى السودان فى أقلّ من صفحتين ، فعاهدتُ الله والحب أن أكتب أخبارها فى مئات الصفحات[2]

ولكن متى ؟

قلبى يحدثنى بأن الله لن يبخل علىّ بتحقيق هذا الحلم الجميل

كانت « تاجوج » تعيش فى « عروس الرمال »

فما عروس الرمال ؟

سترون وصفها بعد حين أو أحايين

---

(١) زرت جانباً من أملاك الأمير عمر طوسون ، فاهتديت إلى معان عمرانية سأتحدث عنها بعد حين

(٢) « الرسالة » : نشرت هذه القصة مطوّلة فى العدد الثانى عشر من الرسالة .

فرصة لن تضيع

في العام الماضي أرسلت إلى المهرجان الأدبي في السودان بحثاً عن « الطريق عن الوحدة العربية » وهو أول وحي جاد به السودان على قلمي . وفي هذا العام تفضل رئيس المهرجان فوجّه إليّ دعوة كريمة لإرسال كلمة أو قصيدة تُلقى في المهرجان ، فرأيت أن أرسل إليه قصيدة عن مصر الجديدة . ولكني عرفت أن آخر موعد لتقديم الكلمات والخطب والقصائد هو اليوم العشرون من رمضان ، فماذا أصنع ؟

سأنشر قصيدتي في العدد المقبل من « الرسالة » مهداةً إلى نادي الخريجين ، وبذلك لا تضيع فرصة الاشتراك في ذلك المهرجان ، فالمهم هو تعاون العقول ، وتآخي النفوس ، وتناجي القلوب . وقد يتفضل الله فيسمح بالفرصة المقبلة ، فرصة المؤتمر الذي يُعقد في عيد الأضحى ، وللمؤتمر هنالك معنًى يختلف عن المهرجان باختلاف الموضوعات الأدبية والقومية والاجتماعية

ولعل الأقدار تسمح بأن يكون لنادي الخريجين في السودان قوة الجمعية الطبية المصرية ، فيومذاك ينتفع بما سنّت من التقاليد فلا يكتفي بالتنقل بين مدائن السودان عند إقامة المهرجانات والمؤتمرات ، وإنما يتنقل بين المدائن العربية فيكون مرة في الخرطوم ومرة في القاهرة ومرة في دمشق ومرة في بيروت ومرة في بغداد

وبهذه المناسبة أقول : هل أقامت الجمعية الطبية المصرية أحد مؤتمراتها في الخرطوم أو أم درمان ، مع أنها زارت أكثر الحواضر العربية وفكرت في زيارة طهران ؟

أجب عن هذا السؤال ، يا معالي الدكتور علي باشا ابراهيم !

نقد الشعر على أساس وحدة البيت

من رأي بعض القدماء أن الشعر لا ينقده غير الشعراء ، وحجة ذلك البعض أن الشاعر هو الذي يدرك الدقائق الشعرية ، ويعرف ما يباح وما لا يباح من التأنق والابتذال

والظاهر أن ابن الرومي هو أول شاعر نص على أن الجودة المطلقة لا تُشترطُ في كل بيت ، ولكن هذه النظرية لم تتضح في ذهن ابن الرومي كل الاتضاح ، بدليل أنه ساقها مساق الاعتذار ، حين قرّر أنه ليس أعظم من الله ، والله يخلق الشجرة وفي أغصانها القويّ والضعيف

ولو أن هذه النظرية كانت اتضحت في ذهن ابن الرومي لترك جانب الاعتذار واعتصم بجانب الاحتجاج . وتفسير ذلك أن جمال الشجرة مجمَلٌ لا مفصَّل ، فهي جميلة في مرأى العين ، بغض النظر عما فيها من أغصانٍ ضعاف ، ولعل جمالها لم يكمل إلا بفضل تلك الأغصان الضعاف

وأوضّح هذه النظرية بعض التوضيح فأقول : في كل وجه جميل ملامح تكميلية تؤكد ما فيه من جمال ، ولكنها منفردة لا توصف بالجمال

وفي الزهرة الجميلة أوراق يموزها الحُسن ، ولكن جمال الزهرة يحتاج إليها كل الاحتياج

والأرض الجيدة لا تستوي أبداً ، وعدم استواء الأرض الجيدة هو الذي يتيح لها فرصة الانتفاع بالشمس والهواء

وما يقال في المحسوسات يقال في المعقولات ، فالنبوغ الفائق هو في ذاته لون من الانحراف ، لأنه صورة من طغيان بعض المواهب على بعض ، ولو استقامت المواهب الإنسانية استقامة مطلقةً في جميع الناس لكان من المستحيل أن يتفوق الإنسان على الحيوان

تفوُّقُ جارحة على جارحة أو ملَكة على ملَكة ، هو أساس النبوغ والعبقرية ، ولكن وجود الجارحة الضعيفة أو الملكة الضعيفة شرطٌ أساسيٌّ في تكوين ما يقوى من الجوارح والملكات ، كما أن الغصن الضعيف سناد للغصن القويّ في تكوين الشجرة الفرعاء

والقصيدة كالشجرة ، يستبد فيها البيت القويُّ بالبيت الضعيف ، وعلى أساس القوة والضعف ينهض بناء الوجود

وإذن ؟

وإذن يخطئُ من يُجاري القدماء في نقد كل بيت من القصيدة على حدة ، وإنما الرأي أن تكون أبيات القصيدة كسامير السفينة ، ومسامير السفينة تختلف باختلاف مواطن الرباط والوثاق